المسيح المخلص و فكرة الخلاص - في الفلسفة الهيغيلية -

م.د. ميثم محمّد يسر
كلية الآداب .جامعة واسط

التّمهيد- فكرة المخلص أو (الماسيا):

إنَّ فكرة المسيح المخلص (المنقذ مؤدّاهاً : أنَّ المسيح (عليه السلام) يعود في آخر الزمان مرة أخرى ، لإنقاذ العالم ، أو المسيحيين بعدما ضحى بنفسه تكفيرا عن خطايا البشر١. وان أصل هذه الفكرة مستمد من العقيدة اليهودية، اذ كان اليهود يعتقدون ان مخلّصاً أو منجياً للعالم سيظهر في آخر الزمان٢ ويعيد لهم مجدهم السابق، ويصلح احوالهم، وينصفهم من الظلم الذي وقع عليهم عبر التاريخ ، بخاصة بعد خراب دولتهم وتشتتهم في الاصقاع وتعرضهم الى القتل والسبي والتشريد والاستعباد على مرّ الزمان. ولو عدنا الى اصل الكلمة نجد انها مستله من كلمة (ماشيح) :

وهي كلمة عبريّة تعني (المسيح المخلص) ومنها (مشيحوت) أي: (المشيحانية)، وهي ايضاً الاعتقاد بمجيء (الماشيح) والكلمة تعني (المسح بالزيت المقدس). وكان اليهود يعملون بها ، وقد اخذوها من عقائد الشعوب القديمة . اذ يمسحون راس الملك او الكاهن بالزيت قبل تنصيبه وهي علامة على المكانه الخاصة الجديدة ، وعلامة أنَّ الروح الإلهية حلّت فيه٣ . وتطور هذا المصطلح ، وأصبح له دلالات كثيرة . فكلمة (ماشيح) تشير الى ملوك اليهود وانبيائهم ، وتشير الى (قورش)* والى فرد يقوم بتنفيذ مهمة خاصة يوكلها إليه الإله . وأخيرا أصبحت تشير الى شخص مرسل من الإله يتمتع بقداسة خاصة ، أي أنه إنسانٌ سماويٌّ ، وكائن معجز خلقه الله قبل زمن بعيد ، ويبقى في السماء حتى حين ساعة إرساله، ويسمّى (ابن الانسان ، لأنّه سيظهر في صورة إنسان ، وإن كانت طبيعته تجمع بين الإنسان والإله ، اذ انّه يجسّد الإله في التاريخ اليهوديّ ، بل سيصبح شخصية عالّمية يصلح البشريَّة بأجمعها ، وينهي عذاب اليهود ويأتيهم بالخلاص[٥] .

فكرة المسيح المخلص عند المسيحيين:-

ويبدو أنَّ أسباب ظهور فكرة المسيح المخلّص عند المسيح، متشابهه للأسباب التي ظهرت عند اليهود. إذ إنَّ المسيحَّية قد ولدت من رحم اليهودية ، والمسيح (عليه السلام) من بني إسرائيل ، واتباع السَّيد المسيح من الحواريين هم يهود ايضاً . والظروف التي مّرت بالمسيحيين مشابهة للظروف التي مّر بها اليهودي ، فكان لابّد من أن تظهر فكرة المخلّص الذي سيظهر ويحكم بالعدل ويقضي على الظلم والفساد. فالمسيحيون بعد عيسى بن مريم قد عاشوا الظلم والأضطهاد ، قُتِلُوا صُلبِوُ ، أُحْرِقُوا، ودُفِنُوا أحياءً، لاسيما إبان الحكم الروماني، أيام نيرون سنة ٦٤ م ،وتراجان (١٠٦م) ، وديسيبوس (٢٤٩م)٦ ، والسبب الاخر الذي ادّى الى ظهور فكرة المنقذ او المخلص عند المسيحيّن هو المسيح نفسه . آنه خيب آمال الكثير من أتباعه ،عندما ترك نفسه عرضة للصلب و الموت . وتركهم دون أن يحقق لهم لهم ما كانوا ينتظرونه منهُ وقد صلبُ وهو في عمر الثالثه والثلاثون، وتركهم حيث اصابهم الأحباط ، دون ان يحققوا اتصال بالملكوت الإلهي ، لذلك يعتقدون ان من الضروري عودتهُ مرة أخرى ليحقق لهم أملهم، وليصل بهم الى الملكوت٧. لذى نجد ان الاناجيل حافلة بالتبشير بمجيء المخلّص (ماسبّا). ففي أنجيل [يوحنا ، لوقا، متي .....] نجد بعض النصوص تشير الى ذلك مثل ((**هو ذا يأتي مع السحاب ، وستنتظره كل عين، والذين طعنوه وستنوح عليه،**

جميع قبائل الارض))٨ وفي اعمال الرسل نجدهم يبشرون بموت المسيح وقيامته وصعوده الى السماء مؤكدين أنّ الماسيّا الذي تمت فيه النبوءات الذي أتم به عمل الفداء كما يقول بطرس الرسول سيظهر من جديد.٩

وتؤكد نصوص أخرى الايمان بفكرة العودة تلك، وجدناه في انجيل يوحنا اذ يقول: ((**الحقّ الحقّ أقولُ لكم ، إنّه ستاتي ساعة وهي الان حين يسمع الأموات صوت ابن الله و السامعون يجيبون لا تتعجبوا من هذا فإنّه تاتي فيه ساعة يسمع الجميع والذين في القبور صوته ، فيخرج الذين عملوا الصالحات الى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة))**[١٠] .

وفي حديث السيد المسيح على جبل الزيتون الى حواريه يكشف عن ظهوره مرة ثانية ويوضح علامات الظهور .إذ قال ((**لايضلكم أحد ، فان كثيرون سيأتون باسمي قائلين : أني انا هو . ويضلون كثيرين . فاذا سمعتهم يجرون وبأخبار حروب فلا ترتاعوا لانها لابد ان تكون ولكن ليس المنتهى بعد فمتى رايتم رجّة الخراب الذي قال عنها دانيال النبي قائمة.... فحينئذ ليهرب الجميع الى الجبال ، والذي على السطح فلا ينزل الى البيت و لا يدخل او يأخذ من بيته شيئا ، والذي في الحقل فلا يرجع الى الوراء ليأخذ ثوبه ، حينئذ إن قال لكم : هو ذا المسيح هنا هو ذا هنا فلا تصدقوا لانه سيقوم مسحاء و كذبة وانبياء كذبة ويعطوه آيات وعجائب لكي يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً .. فانتظروا أنتم ، ها أنا ذا قد أخبرتكم بكل شيء))** وأضاف يقول بعد هذا الاضطراب والتفكك ((**وأما في تلك الأيام بعد ذلك الضيق والشمس تظلم ، والقمر لا يعطي ضوء ونجوم السماء تتساقط ، والقوات التي في السماء تتزعزع ، يبصرون ابن الإنسان آتياً في السحاب بقوة كثيرة ومجد ، فيرسل ملائكته وبجمع مختاريه من الأربع من أقصاء الأرض الى أقصاء الأرض))**[١١] .

إن تلك النصوص التي اوردناه تؤكد عوده المسيح المخلّص (ماسيّا). وهي دلالة على تغلغل تلك الفكرة في الديانة المسيحة حيث أصبحت عقيدة راسخة عند معظم المسيحين من لاهوتييهم وفلاسفتهم.

أن فكرة المنقذ أو المصلح او المخلص تكشف ، بطبيعة الحال ، عن واقع الإنسان وفكره وآماله. في تحقيق العدالة والتخلص من الظلم ، وأمله في مجتمع فاضل، وفي الإصلاح من خلال هذا الكائن الإلهي المعجز الذي يستطيع أن يصل بالإنسان إلى اعلى مستوى من الوعي والإيمان والمعرفة.

إن كلٌ النصوص تشير الى أنّ المخلّص يأتي لينقذ البشرية جمعاء من واقع اجتماعيّ واقتصاديّ وسياسيّ متردّي ليصل الى بّر الأمان. وهذا لا يتحقق إلا بكائن معجز متوافرة لديه كلّ الإمكانات والأليات، فإمكاناته هي إمكانات الإله ذاته، إذ هو مفتاح كلّ مشكلة ولا يعجز عن فعل أي شيء. مهما كان مستحيلاً من وجهة نظر البشر ، لأنه لا مستحيل أمامه. ان تلك الفكرة تدل على نكوص العقل وعجزهُ وعدم قدرته على أيجاد الحلول للمشاكل المجتمعية ، سواء ، ذلك على مستوى الفكر والاقتصاد او السياسية او جوانب الحياة الاجتماعية الأخرى ، وهي دليل على فشل العقل الإنساني على مواجهة الواقع بالطرق العلمية ، او إيجاد المناهج الصحيحة للارتقاء، لذلك يلجأ الى انتظار المعجزات الإلهية ليوظفها لحل مشاكله اليومية ،ويأمل في حياة أخرى سعيدة.

رؤية هَيغل لفكرة المخلّص (ماسيّا)

الفلسفة الهيغيلّية هي استيعاب عقلانيّ للعقيدة المسيحيّة . و لثالوثها المقدس (الله – الأبن – الروح القدس) ، اذ يقابلها في المذهب الهيغيليّ الفكر الكلي (الله – فكرة خالص) ، والفكر الجزئي (الله – الأبن وقد تغلغل في الطبيعة)

الفكر الفردي (الروح القدس). الله وقد أكتسب معرفة جديدة وتخلص من المادة . أذ إنّ الروح القدس تجمع النقيضين في مركّب أرقى . هكذا صاغ هيغل مذهبه ومنهجه من خلال استيعاب العقيدة المسيحيّة . بمعنى أنّه استوحى هذه الأفكار ووظفها ضمن مشروعه الفلسفي الشامل.

إنَّ مشروع هيغل الذي طرحه في كتاب (الفينومينولوجيا) يكشف فيه عن حركة الفكر منذ بداية الوعي بكل توجهاته وتشعباته وتطوره الى زمن الفيلسوف. فهو رصد لنشاط العقل الإنساني منذ البداية الى ان اصبح فكراً تصورياً بحتاً اذ طبق هيغل منهجه على كل النشاط الإنساني فكتب في الفن ، والدين ، والدولة والفلسفة ،والتاريخ عنده هو تاريخ تطور العقل واللحظات الحاسمة فيه هي لحظات انتقال العقل الإنساني من مستوى وعي متدن الى مستوى اعلى و أرقئ . يرى هيغل أنّ الفكر هو الذي يحرك التاريخ، لذلك فان (فينومينولوجيا الروح) ترصد ديالكتيك الفكر وصراعه من اجل التطوّر ، لذا كان هذا الكتاب مقدمة لمشروعه الفلسفيّ العظيم الذي الذي كشف فيه عن تطور وعي الانسان ، ومسيرة الروح نحو المطلق (الله).

مفهوم الروح المطلق عند هيغل:-

استعار هيغل المفاهيم الذي تفترض إلهاً متعالياً ، وذاتاً مستقلاً وكان يرى أنّ المتناهي (الإنسان) هو فترة أساسيّة في حياة اللامتناهي (الله).وأنّه لولا العالم لما كان الله١٢. ويرى هيغل أن الله لا يمكن أن يتصور عالياً عن الوعي الإنساني ، لأنّه لا يوجد إلا في باطن هذا الوعي ومن خلالهُ ،و لأ يمكن أن يكون الله مفارقاً للإنسان[١٣]. حيث يرى ((**ان الله ليس روحاً الأ من حيث إنّه يعرف ذاته ومعرفته لذاته هي عبارة عن الوعي الذي يحصله من ذاته ومن خلال الإنسان . والمعرفة التي يحصلها البشر هي تلك المعرفة تضل تتقدم حتى تحصل درجة المعرفة التي يحصلها الإنسان عن ذاته**))[١٤]. وفي تصوره للروح المطلق يرى ((**إنّ الماهية الكلية للروح تتخصص في أرواح فردية تعي الماهية الكلية وتعي تطابقها الذاتي معها وهذه هي الصورة التي تعرف بها هذه الماهية نفسها وتصبح روحاً حقاً**))[١٥]. وعندما تحدّث هيغل عن روح العالم فإنّه يعني بذلك روحاً عقلانيا محايثا يكون في البداية وعياً ، ويعي في النهاية نفسه في ذهن الفيلسوف. إن الفكرة المطلقة كما يقول [رينة سرو] ليس سوى الانموذج المثالي للروح المحروم ليس فقط من وعي خاص بل من الوجود الخاص وإنه يتحقق فقط في الأرواح١٧.

إن المطلق الذي أشار اليه هيغل في الفينومينولوجيا على أنه منظومة (systeme) هو في جوهره وحدة الروح التي تبث نوازعها ديالكتيكيا في عروق المتعدد ، أيّ في عالم المشاركة ، ويتعلّق أمر العالم بالمشاركة ليس في انسياق جبري ، لأنَّ الروح حرة خلاقة للأرواح التي ستكسب تلقائيتها وحريتها. و الروح المطلق هو في جوهره روح خلاق مبدع يجعل الأروح الأخرى حرّة . فيما تتولى هذه الاروح نفسها إنجاز صيرورة إحدها الأخرى في وسط المجموعة البشرية[١٨].

إنّ مسيرة الروح تتكامل من خلال الحركة نحو هدفها أوغايتها ، عبر التاريخ . وكل مسيرة العالم سائرة نحو هدف أوغاية محددة هي (تصالح النهائي مع اللانهائي). وبعبارة أخرى (**اندماج ما هو معطى في نهائية لفكرة**).

إنّ مسيره الروح المطلق صوب التحقق تمثلّ كلّ نشاطات الحياة . إنّها نقد للوعيّ وللفكر عبر الزمن أي من خلال وعي الأنسان وتقدم فكره عبر الزمن ، فالمطلق يتجلّى من خلال هذه المسيرة عبر ديالكتيك صاعد ولكن ليس

باتجاه واحد. وإنَّ أصعب ما يواجهه دارسو الفكر الهيغيلي يكمن في تبيان طبيعة الروح المطلق. وإنّ الإشكال والصور المتعاقبة التي يحفل بها مجرى الصيرورة تفرض استحالة أن نتمثل هيأة محددة للامتناهي أو المطلق١٩. وإنّ التغيرات التي تصيب الأشياء تمر عبر الزمن ، وتقوم اساساً على ضرورة احلالها وانتمائها في المطلق (الله).

المسيحية وفكرة تحقيق المطلق:-

لقد شخص هيغل حركة الروح (الفكر) ،من خلال نشاط البشرية عبر التاريخ ، ورآى إنّ تطور الفكر يمر عبر مراحل متعددة ومن خلال أنساق ، هذه الأنساق تمثّل نشاط البشرية عبر التاريخ و الصيرورة في مسيرة مستمرة والصيرورة لا تتوقف بل هي في مسيرة مستمرة نحو الهدف والهدف هو الوصول الى المطلق.

إنّ الدين هو مرحلة من مراحل تطوّر الروح وترقيها وكشف نشاط الروح وتجلّيها . ويعدُ الدين عند هيغل مرحلة متطوّرة من مراحل وعي الإنسان .إنّه مرحلة متطورة من مراحل تجلّي الروح . فالدين يوصف بأنّه تمثّل ، والتمثل هو بمرحل وسطى مابين الفكر الحسي والفكر التصوري٢٠. أي بين الفن والفلسفة .والدين نفسه مرُّ بمرحلة متعددة من التطور عبر جدل صاعد .وقد رصد هيغل هذه الحركة الديالكتيكية لتطور الديانات عبر تاريخ الشعوب٢١. حتى وصولها الى الديانة المطلقة وهي الديانة المسيحيّة . التي مرت هي أيضاً بمراحل متعددة حتى وصولها الى المسيحية بشكلها (البروتستانتي) .وهي الديانة المطلقة بحسب هيغل . والبروتستانتية التي اعتبرها أساس الفلسفة الحديثة هي التي أصبحت المبدأ الأساس لرسالة المسيح وهو (الحرية لجميع البشر)٢٢.

لقد رصد هيغل تطور المسيحية من خلال مسيرة السيد المسيح عليه السلام الى أن نضجت هذه الديانة على يد لوثر) الذي مزج ين الروح الجرمانيه الحرة والمسيحية فانتج البروتستانتية٢٣.

يعد هيغل ظهور المسيح الابن في الطبيعة (هنا و الأن) خطوة متقدمة في مسيرة المطلق. إذ لأول مرة في التاريخ تنزل الروح من عليائها وتتجلّى في الطبيعة . وظهور المسيح ابن الله معناه أنّ الانسان أصبح إلهاً أو الإله تجلّى على شكل أنسان ، أي حضور الفكر بشكل واقعيّ٢٤. بعدما كانت الذهنية اليهودية ترى الاله بعيداً متعالياً لا يمكن بأيّ حال من الأحوال بلوغه . لقد مثلت الديانة المسيحية حضور الخلود في باطن ماهو عرضي وزائل ولقد اعتقد العبرانيين أن الله تاركهم ومصيرهم ولم ينجُ المسيح من ربقة المصير حيث اتجه إلى الانفصال عن دولته وشعبه٢٥.

لقد عرف تلاميذ السيد المسيح وحواريوه السيد المسيح عن قرب ورأوه واستمعوا اليه ولكن هذا المسيح التاريخي قد بقي منفصلاً عنهم بفعل هوّة الموضوعية الحسية التي كانت قائمة بينه وبينهم ، بمعنى أن هناك فارقاً بين مستوى وعيه وادراكه وطبيعة تفكيره وبينهم ، إنّه فارق لايمكن اجتيازه ، ومن هناك كان لابد ، لحضرة المسيح الحسية (الهنا – ولان) ، من أن تتحّول الى حضرة ورحية أي لابد للمسيح (الحضرة الحسية) أنّ تختفي . لقد أصبح وجوده المختفي أو ذكراه كذكرى باطنه مشتركة بينهم، او هو حضرة روحية و هذه الحضرة لم تصبح روحية الا حين اختفائه بصلبه او موته٢٦. وحين قال المسيح لتلاميذه في العشاء الأخير : (أنّه في كل مرة تجتمعون أكن أنا بينكم) فإنّه يعني ان الروح لم يعد منفصلاً عنهم بل اصبح كامناً فيهم٢٧.

إن موت المسيح قد اندمج في روح الجماعة فأصبح كتعبير عن الوعي الذاتي الكُلِّيّ لهم . أي أن الفعل الذي تحقق من خلال شخص السَّيِّد المسيح قد أصبح الأن يتحقق في روح الجماعة . بالنسبة الى الجماعة الروحية٢٨.

إن الحاضر المباشر (الأن) أصبح ماضياً ، وقد انقضى ، وعلى هذا فإن الفكرة الحّسيّة قبل كل شي تجعل الماضي متكاملاً وهي تصور من وجهة نظر الكل . الماضي بالنسبة لها هي لحظة أحادية الجانب والحاضر يحتوي الماضي والمستقبل فيه كلحضتين ، ويرى هيغل أنّه بعد موت المسيح فإنّ روحه قد حلت في الجماعة (الكنيسة) . وهي جماعة كلية و أصبح لزاماً على هذه الجماعة أن تحقق في ذاتها مائم حدوثه بالفعل من خلال موت المسيح . إنّ الروح تعلم أنّ الأله المثالي قد تواضع و هبط بنفسه الى مستوى الأنسان ، وأنّه قدتم التصالح بين المتناهي واللامتناهي وعلى ذلك فلابد للجماعة مِن أنْ تعمد إلى تحقيق المصالحة في صميم ذاتها بينها وبين الإله بحيث تستبطن في ذاتها موت المسيح وقيامته . إنّ موت المسيح هو فقط موت الإله الإنسان ، إنّه موت اللإله المجّرد الذي كان تعاليه يفصل الوجود البشري فصلاً جذرياً عن ماهيته.

يقول هيغل ((**إنّها الروح ، تمثل الروح التحول مما هو (براني) أي مما هو تجلّي خارجيّ إلى ماهو جواني**[٢٩] **وهذا التحول يشغل باليقين الذي تستحضره الذات بجوهريتها اللامتناهية . وحقيقة أنها تعرف ذاتها على أنها لامتناهية وأبدية . تعرف ذاتها على أنها خالدة**))[٣٠].

ويوضح هيغل هذا التطور الفكري المفصليّ في الديانة المسيحية فيقول ((**وهذا التحول هو تدفق الروح و الذي يمكن أن لايحصل ظهوره الا بعد أن انتزع المسيح من الجسم وتوقف الحاضر المباشر الحسي وحينئذ تظهر الروح حاضرة بالنسبة للادراك الحسي (الأن) هو شي مختلف وله شكل**))[٣١].

إنّ التحليلات الهيغيلية لقصة المسيح ولادته حضوره – موته – قيامته) يعطي بعداً ، معرفياً وعقلانياً . إنّه لا يرفض القول بألوهية المسيح بمعنى ألالوهية التي فهمها هيغل والتي عرضناها قبل قليل . ولا يرفض القول بقيامة المسيح و لكنها ليست القيامة التي عرفها المسيحيون . لقد رفض كثير من مفكري القرن الثامن عشر وما قبله القول بالوهية المسيح وقيامته وكل معجزاته الأخرى ولكن هيغل احتوى كل هذه المعجزات بتفسيرات هي اقرب الى مايسمى انسنة الدين أي تأويلات عقلية تجعلها اكثر منطقية ويمكن ان يقبلها العقل . إنّها قراءته المختلفة للدين من خلال منهجه الذي استوعب الوعي الإنساني كله الذي حاول ان يستوعب الوجود كله .

ان المسيح كظاهرة فكرية كان حتمياً في مسيرة الروح . بمعنى أنّ الواقع الفكري ومستوى الوعي الذي انتجه الواقع الاجتماعي والسياسي كان بحاجة الى ظهور المسيح وموت المسيح كان ضرورياً حتى تنضج الجماعة الروحية . أي إن تستبطن تعاليمه .بمعنى ان تصبح تعاليمه فكرية راسخة (قانوناً كليا) وان بقائه كان يضرُّ بمسيرة الفكر لان الغاية من وجوده قد انتهت[٣٢].

إنّ حضور المسيح داخل الجماعة الروحية ، بشكله الروحي الحسي المعبر عن الوهية الانسان اصبح مضراً بالمسيرة نحو المطلق وان بقائهُ يضرّ بعملية المصالحة (تصالح المتناهي الانسان) مع اللامتناهي (الله). بمعنى ان وجوده الحسي لا يجعل الانسان إلهياً أي يدرك الكلي باتصاله بالمطلق. وان مركزية السيد المسيح لا تجعل الجماعة تفكر ، بل تنظر ، لان وجوده يجعله يفكر بدلاً عنهم٣٣. وإن قيامة المسيح (أي ظهوره بعد ثلاثة أيام من صلبه) لا تعني عند هيغل قيامة حسية بل تعني ان الروح القدس اصبح حالاً في الجماعة أي ان الفكر قد تجسد واصبح باطناً في جماعته، لانه علا على حسيته وانتشر فاصبحت الجماعة كلها هي المسيح أو ان روحه قد حلّت فيهم ٣٤. هكذا تقدم الوعي واصبح كلياً عبر المراحل الثلاثة التي مرت بها حياة يسوع ومرّ بها الوعي الإنساني .

موقف هيغل من فكرة المسيح المخلص (ماسيا)

بعد العرض الذي قدمناه حول الفكر الهيغيلي ، وموقف هيغل من المطلق، والدين، والمسيحية يصبح من الحتمي ان يرفض هيغل فكرة المسيح المخلص سواء عند المسيحين او عند اليهود٣٥. ففي دراسته (وضعانية الدين المسيحي يرفض فكرة المسيح المنتظر ، ويعلل ظهور هذه الفكرة الى تسلل بعض العناصر اليهودية الى المسيحية و يرى هيغل ان المسيح عيسى عليه السلام لم يأتي للعالم لاقامة دين جديد واخلاق جديده، بل جاء لتحرير الإنسان من ربقة الشريعة وإظهار ان الله اب لا سيد ، ويرى ان الضمير المسيحي لم يلبث ان عاد الى النزعة اليهودية في التمركز حول الله . فلم يعد هناك فارق كبير بين إله المسيحية والإله اليهودي وقد حمّل هيغل المسيح نفسه مسؤولية هذه الردة، وذلك بسبب المجتمع الذي كان يعيش فيه إنّ هذا المجتمع لايفهم الا لغة هذا الخطاب، ويقصد بالمجتمع (بني إسرائيل)، لان عقولهم ومستوى تفكيرهم لا تستطيع استيعاب الرسالة الفكرية التي اتى بها وهو مبدا الحرية. والدليل على ذلك ان المسيح إقامه رسالته على أفكار المعجزة والشيطان والايمان بالمسيح المنتظر[٣٦].

إن وجود المسيح لا يجعل الناس يفكرون في إيجاد حلول بل ينتظرون المخلِّص لحل جميع مشاكلهم. ان هيغل في هذه الدراسة وضعانية الدين المسيحي لا يعير أهمية كبيرة لأفكار مثل المسيح المنتظر لأنه يرى ان جوهر رسالة السيد المسيح هو جعل الناس احراراً وتخليصهم من الشرائع التي كتبها رجال الدين اليهود٣٧، لكن حواريي المسيح قد حرصوا على الاحتفاظ بهذه الأفكار وجعلها أساسية٣٨: يقول هيغل في كتابه حياة يسوع على لسان المسيح : **(هذا الانتظار الى الماسيّا يوقع أبناء امتي باخطار جسيمة وباربطة مع احكامهم المسبقة الأخرى وتعصبهم الاعمى فانه يهيء سقوطهم الكامل وهذ الأمل الكاذب يجعلهم العوبة للدجالين والمحتالين والحالمين فاقدي الراس)**[٣٩]. إنّ من الطبيعي أن يرفض هيغل أفكار المعجزة والمسيح المنتظر ، اذ اعتبرها بعيدة عن الرسالة التي اتى بها يسو ع ، لان المسيح اتى ليخلص البشرية من الحسية وعبودية الشريعة وذلك لجعل البشر احراراً، أي ان لا يكونو تابعين ، واتى ليحرر الروح .وحتى وان تعامل المسيح مع هذه الأشياء التي تعد حسية وغريبة عن روح المسيح وجوهر رسالته . فأنّه تعامل معها لاسباب وظروف قاهرة ، ولان القوم لا يستطيعون احياناً التواصل معه .

ويتضح موقف هيغل في رفضة لفكرة المسيح المنتظر في نص له في كتاب حياة يسوع اذ يستعير هيغل كلام للمسيح فيقول : **(احذرو ان يستولي عليكم انتم ايضاً ، سيقال غالبا ان الماسيّا المنتظر هنا او انه هناك وكثير سينتحلون اسم الماسيا وسينصبون انفسهم تحت هذا الاسم قادة للتمرد ومؤسسي شيع دينية ، وكثيرون سيضعون نبوءات ومعجزات حتى يخدعو بقدر إمكانهم الصالحين انفسهم)**[٤٠].يتضح من هذا النص أنّ هيغل يرفض فكرةالمسيح المنتظر، غير أنّ هذه العقيدة يستغلها الكثير من الكذابين المدعين أنهم الماسيا في إشارة الى (المسيح).

وهؤلاء المسحاء الكذابون سوف يعملون الفتن و التمردات ويحدثون الضرر في المجتمع ويؤسسون فرقاً و أحزاباً تؤدي الى حروب وقتل ومجاعة [٤١]. يقول هيغل على لسان المسيح : **(سيقال غالباً هناك في الصحراء سيظهر ماسيا المنتظر، أو إنّه يمكث خفية في الكهف . فلا تدعوا مثل هذه الكلمات تجذبكم فتجرون وراءها)** ان تخمينات وشائعات مماثلة ستسمح بقيادة تمردات سياسية وانتقادات دينية، سيحصل تحزب وبروح هذا التحزب ويحصل تباغض، ويفضح والوحد الاخر، ويعتقد البعض أن لهم الحق في التضحية بأقدس واجبات الإنسانية في سبيل هذا الحماس الأعمى)٤٢ . إنّ هذه الأفكار تظهر حين تكون ، الأوضاع الاجتماعية والسياسة مضطربة أي لا تجري في السياق

الصحيح ، ويعز على الناس إيجاد الحلول لمشاكلهم فينتاب الناس حماسٌ بل هوس، إذ تتمكن منهم هذه الشائعات فيكونون في حلٍ من واجباتهم الاسرية و الاجتماعية ويتجهون لأهداف يعتقدون أنها أسمى من هذه الواجبات . ولكن هي في حقيقتها واجبات جوفاء . ونتيجة لكل هذا يكون ((**خراب الدولة، وانحلال الروابط الاجتماعية و الإنسانية وتكون هناك مجاعة مما يوقع هذه البلدان الشقية فريسة للاعداء الخارجيين فويل للحوامل و الرضع**))[٤٣].

يبدو أنّ هيغل يأخذ العبرة من تاريخ اليهود الذين ينتظرون مخلصهم فكان ماكان من انحلال الدولة وانفكاك الروابط الاجتماعية وتفرق الشعب في اصقاع الأرض . وحروب أهلية .أنّ هذه الحروب يرجع ضررها على الضعفاء من الحوامل و الرضع . فما هو الحل إذن ؟ الحلّ الهيغيلي هو في اعتزال الفتنة كما جاء على لسان يسوع : (**لاتسمحوا لانفسكم في التحزب هذه الاضطرابات سيصاب الكثيرون بعدوى هذه الروح الخداعة دون ان يعلموا كيف حصل ذلك . وكثيرون سيستولي عليهم هذا الاعصار فيبتعدون في كل خطوة عن روح الاعتدال . ويرون انفسهم في النهاية متورطين في الجرائم وفي الخراب دون ان يكون بأمكانهم التراجع**)[٤٤] ويستمر هيغل في إعطاء الحلول لتلك الفترة العصيبة على المجتمع فيقول : (**اهربوا وتجنبوا قدر استطاعتكم مسوح الفساد وفقدان الرحمة هذا وتحرروا من كل علاقات القربى ..... ومهما حصل ابقوا مخلصين لمبادئكم عندما يهاجمكم روح التحزبويؤلمكم ، بشرو بالاعتدال وإنصحو بالمحبة والسلام ولاتهتموا بايٍ من هذه الأحزاب الدينية او السياسية**))[٤٥].

إن هذه النصوص هي وصف واضح ومفصل للفتنة . و الحل هو الابتعاد عنها وعدم الدخول مع أي طرف ضد طرفاً اخر وفي اي حزب ديني او سياسي . بل الرجوع الى هدف المسيح الاسمى (المحبة والسلام) لماذا؟ لان هذا الأفكار لا تتطابق مع العقل و لامع مسيرة الفكر التي مثلها السيد المسيح و النتيجة المترتبة على هذه النصوص إنّ هيغل لايؤمن بوجود مسيح منتظر . ان وجود هذه العقيدة وترسيخها عند المؤمنين من المسيحيين يعود بالضرر على المجتمع والدولة بل ان سبب ظهورها يعود الى خللاً اجتماعي بنيوي يودي الى خللاً فكري . وقد تستغل هذه العقيدة سلبياً وتؤدي الى تفكك الدولة و انهيارها وواضح من النصوص السابقة ان هنالك خلل في الوعي والحل كما يقول هيغل هو بالاعتزال وعدم التحزب لاي مذهب او حزب سياسي او ديني يخوض غمار هذه العقائد لان هذا التعصب ليس فيه كثير فائدة سواء للشخص او المجتمع او للدولة بل هو الضرر بعينه.

الخلاص وفق الرؤية الهيغيلية.

إن الخلاص بحسب هيغل هو ليس بانتظار (الماسيّا) ، لأن انتظار الماسيا يوقعنا في أخطار نحن في غنى عنها . إنّ ترقي الوعي الإنساني يؤدي إلى ادراك القانون (أي ادراك الكلي) . إنَّ الخلاص هو بأجراء عملية التصالح بين النهائي و اللانهائي التي تكلمنا عنها سابقاً أيّ وصول الإنسان الى المطلق وادراكه . إن عملية ترقي الوعي و الوصول الى الهدف هي فضيلة قصوى . إنّ المعرفة هي هدف أخلاقي بل هدف إنسانيّ نبيل . إنّ المعرفة هي التفكير المنطقي العقلاني بعيداً عن الاساطير و المعجزات. وإنّ إدراك القانون الاخلاقي هدف نبيل لانه هدف جميع الانبياء و الفلاسفة و المصلحين. وهو كما يقول هيغل ليس وقفاً على شعب دون غيره إنّه يشمل الجنس البشري بأجمعه . وبهذا يتحقق هدف الإله الذي هو هدف يسوع إنّه خدمة العقل والفضيلة٤٦ في كلّ أنحاء الارض. و إنّه ليس هدفاً لشخص بعينه أو لأمة بعينها إنّه هدف كونيّ . واذا كان الهدف كُلّيّاً وعقلانيّاً فهو هدف إنسانيّ وعلى ذلك سوف لايكون هناك اختلاف و تفرق ، إنما سيكون هناك أتحاد لأنَّ الهدف كلّيّ وعقليّ ، وليس هدفاً قومياً أو وطنياً كهدف اليهود٤٧. فالخلاص أذن هو بالانتقال الى مرحلة فكرية أرقى وهو هدف وغاية رسالة المسيح نفسها ، إذ أنّ الحلّ هو ليس بانتظار معجزة المسيح

المنتظر ، بل الحلّ هو الاندماج (بالروح القدس) والكنيسة . إذ بالانتقال الى هذه المرحلة أصبحت الجماعة جماعة فكرية وابتعدت عن الحسية وهكذا تختفي النظرية القديمة الى المسيح باعتباره الفردية المحورية٤٨ .

لقد أصبح المسيح بموته هو الإله الإنساني او الانسان الإلهي وأصبح الأن ليس (بذاته أو لذاته) بل (لذاته وبذاته)٤٩معاً ، بمعنى أنّ الروح المطلق أصبح في اعلى مراحل تجليه.و أنّ الفكر اصبح تصوريّاً .فالخلاصة إذن هي كان في موت المسيح وخروج الروح من الجسم (انتهاء الحسّيّ) وتّحوله إلى روح تغلغل في الجماعة (حلّ فيها) أي أنّ روحه أصبحت تملكها الجماعة وهي معرفة يقول عنها هيغل (معرفة الجماعة لذاتها). فلا يمكن إنّ يقبل هيغل بقراءته هذه للمسيحية عودة المسيح (الماسيّا) لأن عودته حسب هيغل معناها عودة الحسّيّ أي نكوص في الفكر (الوعي) أو هو السير العكسي للروح على حين أنّ الروح (الفكر) في تقّدم مستمر و التقدم هو بالابتعاد عن الحسّيّ. يقول هيغل في فلسفة الدين: (تظهر الجماعة الروحية على شكل تدفق من (الروح القدس). إنّ الايمان يتخذ ظهوره أولاً وقبل كلّ شي في إنسان ما ، في تجّلٍ إنساني ماديّ ،وبعد هذا يأتي الاستيعاب الروحي (الوعي بما هو الروح) إننا نحصل على محتوى روحي . ونحصل على تغير على ما هو مباشر الى ماله طابع روحي . التصديق هنا خارجي، إنّه لايوجد فيما هو حسّيّ أو ماديّ كما أنّه لايمكن ان يتبدّ بطريقة مادية مباشرة)٥٠.

إنّ الخلاص هو في نضوج هذه الجماعة التي ظهرت بفعل نشاط الروح القدس التي هي روح المسيح أو روح الله التي تجلّت بعد انحسار الجسم الحسّيّ الماديّ . إنّ الروح القدس هي روح الله بعدما تكاملت معرفتها . وأنها قد تدفقت إلى الجماعة أي إنَّ الفكر هنا أصبح مبثوثاً في الجماعة الحسية إنّه فكر تصوري لا حسّيّ .

فالخلاص إذن يأتي بعد نضوج الديانة المسيحية لأنها ديانة أدركت المطلق وأدركت الهدف الاسمى الذي يسعى اليه المطلق وهو شعار الحرية لجميع البشر . أننا لا يمكن أن نصل الى هذا الهدف إلا بالمعرفة و الإيمان حسب هيغل هو معرفة أيضاً ولكن بشكل خاص . وقد استعار هيغل عبارة القديس أنسلم(آمن كي أتعقل) ليؤكد أنّ الإيمان معرفة . إن الخلاصة هو في إدراك الحقيقة المطلق التي تكشفها الفلسفة التي ولدت في أحضان الدين الفلسفة الحديثة بالذات خرجت من رحم البروتستانتية التي كان هيغل جزءاً منها. يقول هيغل (**الفلسفة الحديثة وحدها هي التي وصلت إلى الفكر العميق الوارد هكذا في (الفحوى) وليس ممكناً على الاطلاق مناقشة هذه الحقيقة بابتذالات غير فلسفية توحي بفكرة تناقض ما هو بلا قيمة تماما ، والذي يفتقر تماما الى ماهو روحي)**[٥١].

إنَّ الخلاص يأتي امتلاك الحقيقة، وامتلاك الحقيقة ياتي عن طريق معرفتها بكشفها . ولكشفها نحتاج الى أدوات يجب أن نمتلكها . ان التفكير بطريقة فلسفية أي عقلانية ومعرفة كيف سار الفكر وكيف تطور وماهي المرحلة التي مرّ بها عبر التاريخ ومعرفة الظروف الاجتماعية والسياسية التي أنتجت هذا الفكر وكيف اجتاز هذه المراحل إلى أن وصل إلى إتمام نضوجه . إنّ العقل هو الذي يحرك التاريخ الإنساني . وتاريخ الانسانية هو تاريخ تطور العقل . أما الإيمان بالمعجزات ومنها المسيح المنتظر فهو ما يرفضه هيغل..

إنّ الإيمان بفكره المسيح المخلص لا تساعد الإنسان على إدراك المطلق بل تبقيه في المباشرية أو الحسّيّة . إنّ فكرة الانتظار تبقي عقل الإنسان في كسل ولا تساعده على حل مشاكله الاجتماعية و السياسة والفكرية بل يبقى في انتظار من يخلصه. فالخلاص إذن يأتي بالفلسفة وحثّ الناس على التفكير بطريقة فلسفية أي عقلية . إنّ الفلسفة هي نشاط العقل . هي الفكر الكلي التَّصوّري، هي علامة نضوج العقل، وهي التي تصل العقل بالمطلق أي الكلي .هي القادرة على

الاتصال باللانهائي ، لان العقل قادرة على إدراك القانون الكلّيّ وهو الذي يجعل الانسان يشعر بأنه حرّ ، والحرية هي القيمة الاساسيّة للإنسان وهي هدفه الأسمى بحسب هيغل.

الهوامش والتعليقات

١-الغندور ، نبيل انسي: المسيح المخلص في المصادر المسيحية واليهودية، ط١، مكتبة مصر ، الجيزة مصر ٢٠٠٧ ،ص ص ١٤٩-١٥٠ .

٢-عبد الوهاب المسيري، عبد الوهاب : موسوعة اليهود واليهودية تفسير جديد، مج ٥ ، ص ٢٩٤.

٣-الغندور ، نبيل انسي: موسوعة اليهود واليهودية ،ص ١٩٥.

*(قورش) ، قورش الاخميني ابن ملك قمبيز الاول ملك انشان المنحدر من تيس بيس المنحدر من سلالته معظم الملوك الاخمينين. قام قورش بعد احتلال بابل بتحرير اليهود الذين اتى بهم نبوخذنصر الملك البابلي وقد اعتبر منقذ اليهود في التوراة، وقد اعلن التحالف مع الاههم يهوه وذكر في كتاب عزراى واشيعيا . اذ ذكر بان الاله يهوه اله السماوات سخر قورش ملك فارس لينقذ اليهود في بابل وقد قدر عددهم اثنان وخمسون الف وارجع اثاث معبد اوشريم الذي قام الملك البابلي باخذه من هيكل سليمان الى مكانه. اما اشيعية فقد لقب قورش بالمسيح او المنقذ او الموعود لليهود . للمزيد راجع العوادي، مرتضى جاسب، العوادي قورش الاخميني سيراته ومنجزاته رسالة ماجستير غير منشورة من ،كلية التربية /جامعة واسط ،٢٠١٤، ص١٥٩ .

٤-المصدر نفسه: ص ١٥٩.

٥-المصدر نفسه : نفس الصفحة.

٦-القرشي، باقر شريف، حياة الامام المنتظر (المصلح الاعظم)، تح مهدي باقر شريف، ط٨ ، العراق، النجف الاشرف، ٢٠١٥ ، ص٢٣٨.

٧-ابراهيم ، زكريا : هيغل والمثالية المطلقة ، دار مصر في الطباعة ، مصر ، ١٩٧٠ ، ص٤٣٩.

٨-القرشي ، باقر شريف : حياة الامام المنتظر، ص ٢٣٩ .

٩-الغندو ، نبيل انسي : المسيح المخلص في المصادر المسيحية واليهودية ،ص ص ١٥٠ -١٥١.

١٠الكتاب المقدس (العهد الجديد) ، ط ٤ اتحاد جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الاوسط ، لبنان – بيروت ،١٩٩٣ ، ص٢٤.

١١-المصدر نفسه نفس الصفحة كذلك هيغل : حياة يسوع ، ترجمة جرجي يعقوب ، باشراف الدكتور امام عبد الفتاح امام ، ط٣ ، دار التنوير بيروت ،٢٠٠٧ ، ص١١٤.

١٢-سرو ، رينيح هيغل الهيغيلية ، ترجمة نهاد رضا ، دار الأنوار ، بيروت ، د ت ، ص ٦٠.

١٣-ابراهيم ، زكريا : هيغل والمثالية المطلقة ، ص ص٤٣٩ – ٤٤٠.

١٤-المصدر نفسه :ص٤٤٠

١٥-رينيه ، سرو : هيغل والهيغيلية ، ص ٦٠ .

١٦-ابراهيم ، زكريا : هيغل والمثالية المطلقة ، ص ٤٤٠.

١٧-سرو ، رينيه : هيغل والهيغيلة ، ص ٦١.

18-Bour GOis .Bernard – L'Ideatism allemande.Atematives et , progress ,paris , editions vrin , 2000,p.26.

19-LEVINAS EMMONUEL,De Diev qaivient at Idee Paris editions vrin,1992,p.79.

كذلك د.عباس حمزة : الاسكاتولوجيا (المصائرية)ومعنى التاريخ في الهيغيلية والفكر الفرنسي ، مجلة الجديد – طرابلس – ليبيا العدد٣ ،ص ٩٦.

٢٠-ستيس ، ولتر :فلسفة الروح مج ٢ ، ترجمة دكتور امام عبد الفتاح امام ، دار التنوير ، بيروت ، ٢٠٠٥ ،ص١٧٣

٢١-لينو نهارد ، وايس الدين والدولة في فلسفه هيغل ، ترجمة قاسم جبر عبرة ، مراجعة وتقديم دكتور ميثم محمد يسر ، ط١ بيت الحكمة ، بغداد ،٢٠١٢ ، ص ١٥٨.

٢٢-المصدر نفسه نفس الصفحة .

23-NANCY.j-L:Hegel,Liquietude.dungative,paris, edition,Hechette,1997-p.14.

٢٤-د.عباس حمزة جبر:الاسكاتولوجيا (المصائرية) ، ص ص ٩٦-٩٧

٢٥-ابراهيم زكريا : هيغل والمثالية المطلقة ، ص٢٣٨.

٢٦-هيغل : محاضرات في فلسفة الدين (الحلقة السادسة) الله والفكرة الخالدة ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، مطبعة مكتبة ، دار الحكمة القاهرة ، ٢٠٠٤ ، ص١٢٤.

٢٧- المصدر نفسه: ص١٢٦ .

٢٨- المصدر نفسه: ص١٢٧ .

٢٩- المصدر نفسه: نفس الصفحة .

٣٠-ابراهيم زكريا: هيغل والمثالية المطلقة ، ص٤٤٠.

٣١-د.غالي ،وائل : نهاية الفلسفة (دراسة في فكر هيغل) ، ج١ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ،١٩٩٨ ص ص ١٨٨ – ١٨٩.

٣٢-ابراهيم ، زكريا : هيغل والمثالية المطلقة ، ص ٤٤١.

٣٣-المطران انطوان – حميد موراني : هيغل كتابات الشباب ، ط١ ، دار الطليعة بيروت ، ٢٠٠٣ ص ٥٥.

٣٤- ابراهيم ، زكريا : هيغل والمثالية المطلقة ، ص ٤٢.

٣٥- المطران انطوان – حميد موراني : هيغل كتابات الشباب ،ص٥٦.

٣٦-هيغل :حياة يسوع ، ص١١٤.

٣٧-المصدر نفسه : نفس الصفحة.

٣٨ المصدر نفسه نفس الصفحة.

٣٩- المصدر نفسه : ص١١٥.

٤٠- المصدر نفسه : ص١١٢.

٤١- المصدر نفسه : ص١١٥.

٤٢- المصدر نفسه : نفس الصفحة.

٤٣- المصدر نفسه : نفس الصفحة.

٤٤- المصدر نفسه : نفس الصفحة.

٤٥- ابراهيم ، زكريا : هيغل والمثالية المطلقة ، ص ٤٣٧.

٤٦- المصدر نفسه ، ص٤٤٢.

٤٧-هيغل محاضرات في فلسفة الدين ، ج٧ ، الله والفكرة الخالدة ، ص ١٣٧.

٤٨- المصدر نفسه ، ص١٣٣.

٤٩- المصدر نفسه ، ص١٣٨.

٥٠- المصدر نفسه ، ص١٣٨.

٥١- المصدر نفسه ، ص١٣٩.